مجلة المختار للعلوم الإنسانية 01 (01): 58-68، 2003

Research Article

Open Access

صفي الدين بن عبدالحق وكتاب مراصد الاطلاع.

نوري عبدالحميد العانس

قسم التاريخ، كلية الاداب، جامعة عمر المختار

Doi: https://doi.org/10.54172/01sb6d03

المستخلص: يُعَدُّ كتاب "مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع" من الأعمال المهمة في التراث الجغرافي العربي، حيث يقدم رؤى قيمة حول مواقع الممالك والمدن والقرى والأنهار والمناطق المأهولة. ورغم أنه يُعَدُّ اختصارًا لكتاب "معجم البلدان" لياقوت الحموي، إلا أنه يتضمن تصويبات وإضافات قام بها المؤلف. ومع ذلك، أثار غياب اسم المؤلف جدلاً بين الباحثين الحديثين حول نسبته. يقوم هذا البحث بفحص السياق التاريخي وآراء متنوعة بشأن النسبة، مع اختلاف الآراء حول تصنيفه لـ ياقوت الحموي أو صفي الدين بن عبد الحق أو جلال الدين عبد الرحمن السيوطي. يُسلط البحث الضوء على التحديات التي يواجهها الباحثون بسبب غياب نسبة واضحة للمؤلف واختلافات في نسخ المخطوطات.

الكلمات المفتاحية: معجم البلدان، التراث الجغرافي العربي، صفي الدين بن عبد الحق.

Sufi Al-Din ibn Abdul Haq and the book "Marasid Al-Itila"

Nouri Abdul Hamid Al-Ani, Department of History - College of Arts Omar Al-Mukhtar University

Abstract: The book "Marasid al-Itla' fi Asma' al-Amakin wa al-Biqa'" is considered a significant work in Arab geographical heritage, providing valuable insights into the locations of kingdoms, cities, villages, rivers, and inhabited areas. Despite being an abridged version of Yaqut al-Hamawi's "Mu'jam al-Buldan," it includes corrections and additions by the author. However, the absence of the author's name has led to debates among modern researchers about its attribution. This paper examines the historical context and various opinions regarding the authorship, with conflicting claims associating it with Yaqut al-Hamawi, Safi al-Din bin Abd al-Haq, or Jalal al-Din Abd al-Rahman al-Suyuti. The paper highlights the challenges faced by researchers due to the lack of a clear authorial attribution and variations in manuscript copies.

Keywords: Dictionary of countries, Arab geographical heritage, Safi Al-Din bin Abdul Haq.

The Author(s) 2023. This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/) , which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium ،provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

يعد كتاب (مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع) واحداً من كتب التراث الجغرافي العربي المهمة والكثيرة الفائدة في تحديد مواقع الكثير من الممالك والمدن والقرى والأنهار والمعمور من الأرض. محدداً اوصافها واسماءها وما يجودبه تربتها ، واحوالها كما كانت عليه في زمن تأليف الكتاب . ومع أن الكتاب لا يعدو عن كونه اختصاراً لكتاب (معجم البلدان) الذي ألفه ياقوت الحموي الرومي البغدادي المتوف في حلب سنة 626 هـ / 1221 م ، فإنه توفر على تصويبات واضافات اضافها مؤلف الكتاب (المراصد) . ولكن الكتاب على الرغم من أهميته ، فإنه يثير اشكالية للباحثين المحدثين ، فضلاً عما أثاره للقدماء الذين تولوا نسخه بعد تأليفه بزمن ليس ببعيد.

فلقد اختلف هؤلاء الباحثون والنساخ في اسم مؤلف الكتاب ، بعضهم أشار إلى أنه لمؤلف مجهول ، وفريق آخر نسبه إلى ياقوت الحموي صاحب المعجم ، أو إلى صفي الدين بن عبدالحق البغدادي المتوفي سنة 739هـ 1339م بينما نسبه آخرون إلى جلال الدين عبدالرحمن السيوطي المتوفي سنة 911 هـ/ 505م . ومنشأ هذا التباين في الآراء هو أن مؤلف الكتاب لم يضع اسمه عليه ، وعلى الرغم من وجود عدة نسخ مخطوطة في المكتبات العالمية في الوقت الحاضر فإنه لا يمكن القطع بنسبة الكتاب لأي من الثلاثة المذكورين فضلاً عن أن الكتاب قد طبع عدة مرات .

طبع المراصد لأول مرة يينبول Juynboll في ليدن سنة 1850 ، دون أن يذكر أسم مؤلف الكتاب ، ثم طبع طبعة حجرية في طهران سنة 1897 ، ونشره حسين محمد الكاشاني كؤلف للكتاب ثم ، الذي ذكر اسم ياقوت الحموي الرومي وطبع طبعة ثالثة في القاهرة سنة 1938 ، باسم ياقوت الحموي الرومي ، وطبع طبعة رابعة في لقاهرة ، ايضاً سنة 1954 بتحقيق محمد علي البجاوي ، باسم صفي الدين عبد المؤمن بن عبدالحق.

وتفحص المستشرق رينو H.J.T.Renaud طبعة يينبول بعناية ، وخرج بنتيجة تفيد أنه وجد على الأقل ثلاث مخطوطات من الكتاب ، واحدة منها فقط لياقوت والثانية لصفي الدين بن عبدالحق ، والثالثة لجلال الدين عبدالرحمن السيوطي[1] .

والظاهر أن رينو قد توصل إلى هذا الرأي استناداً لما ذكره المؤرخ مصطفى بن عبدالله المعروف بحاجي خليفة ، وبكاتب جلبي المتوفي سنة 1067 هـ / 1657 م . والذي ذكر " أن معجم البلدان اختصره كل من ابن عبدالحق والسيوطي ، وان الأخير لم يتم مختصره كما ورد في لائحة مؤلفاته " ، فضلاً عن كون مقدمة الكتاب الذي نسب إليه تشبه إلى حد كبير مقدمة المخطوطات الأخرى من كتاب المراصد، والمنسوبة لكل من ياقوت وصفي الدين[2] ، وأن السيوطي متأخر جداً إذ أنه توفى بعد وفاة صفي الدين بأكثر من قرن ونصف .

ومنذ ذلك الوقت صارت نسبة الكتاب لكل من ياقوت أو (الصفي) مثار جدل بين الباحثين ، خاصة وأن المؤرخين العرب الذين كتبوا عن الاثنين أشاروا إلى أن ياقوت اختصر معجم البلدان . والأمر الذي يزيد في هذه الحيرة ، هو أن نسخ المخطوطات التي تضمها المكتبات العالمية لكتاب المراصد لم يكتب عليها اسم المؤلف صراحة . وأن الأسطر الأولى من مقدمتها تشير إلى أنها لياقوت ، والأسطر الأخيرة تدل – دون أدنى شك – إنها لمؤلف آخر .

ففي خزائن الكتب التركية ، على سبيل المثال ، توجد الآن ما لا يقل عن تسع نسخ من مخطوطة الكتاب . واحدة دون اسم المؤلف ، والأخرى كتب عليها اسم حلال الدين عبدالرحمن السيوطي ، وأربع منها لصفي الدين عبدالحق واحدة منها تحمل عنوان (مراصد الاطلاع على اسماء الأمكنة والبقاع ، مختصر معجم البلدان) ، وثلاث منها كتب عليها اسم ياقوت الحموي الرومي ، واحدة كتب عليها عنوا (مراصد الاطلاع ، مختصر معجم البلدان)[3] . ويذكر المؤرخ عباس الغزاوي الذي اطلع على هذه المخطوطات " أن النسخة المهمة منها موجودة في خزانة ولي الدين أفندي في استانبول ، كتبت سنة 699 هـ / 1299 م " . ولم يشك الغزاوي مطلقاً في كونها لغير صفي الدين إذا قال " كتبت قبل وفات مؤلفها صفي الدين بنحو اربعين سنة " [4].

وتفحص الباحث المصري على محمد البجاوي الموضوع بعناية فائقة، رجع في ذلك إلى المصادر التي ترجمت لصفي الدين وإلى كتب القدماء ، والمحدثين الذين تناولوا الموضوع من أمثال حاجي خليفة وجرجي زيدان [5]، وغيرهم ممن نسبوا الكتاب لصفي

الدين . ودرس أيضاً مقدمة كتاب المراصد ، وأطلع على النسخ المطبوعة منه وخاصة طبعة القاهرة لسنة 1938 . ثم طبع الكتاب طبعة أخرى اعتماداً على مخطوطة القاهرة التي تعود كتابتها إلى سنة 1108هـ / 1697م والمنسوبة إلى ياقوت الحموي الرومي . لكنه نشرها باسم صفي الدين وبأربعة أجزاء باعتبار أن كاتب المخطوطة اختلط عليه الأمر ، فنقل أول المقدمة من مقدمة كتاب آخر ، لأن جزءها الأول يختلف عن المطبوعة وجزؤها الأخير يتفق مع ما جاء في هذه المطبوعة كل الاتفاق " . ثم قال " نسبنا الكتاب لأبن عبد الحق ، وقد اطمأننا إلى ذلك بعد بحث وطول أناة"[6]

والواقع أن البجاوي لم يقدم دليلاً مقنعاً حول نسبة الكتاب للصفي ، فإذا كان هو مؤلف الكتاب حقاً ، فلماذا لم يذكر اسمه عليه ؟ علماً أنه وضع اسمه على عشرات الكتب التي ألفها ، بعضها أقل شأناً من هذا الكتاب ؟ ولماذا كان المراصد (إن كان لصفي الدين) هو الوحيد الذي يصلنا من كتبه بشكل كامل في حين فقدت المؤلفات الأخرى ، باستثناء مؤلف واحد أو اثنين ؟

للإجابة على هذه التساؤلات ينبغي أن نذكر أن مقدمة معظم المخطوطات التي عثر عليها من الكتاب تشير ضمناً إلى أن مؤلفها هو ياقوت الحموي . إذ وردت فيها عبارات مثل (ألفتُ الكتاب الكبير المسمى بمعجم البلدان) و (أتممتُ الكتاب) و(ضمنتُ الكتاب) . فضلاً عن أن هذه المقدمه تشبه تماماً مقدمتي كل من كتاب المعجم وكتاب المشترك ، الذي هو أيضاً من كتب الحموي ، اسلوباً ومعنى ومنهجاً ولغة ، الأمر الذي يدل على إنها جميعاً لمؤلف واحد ، وهل من المعقول أن يؤلف عالم كتاباً علمياً كبيراً ولا يضع اسمه عليه ؟ أو أن ينسبه إلى عالم آخر غيره ؟

إن المدقق لمقدمة كل من طبعتي طهران والقاهرة لسنة 1938 يقرأ في الأسطر الأولى " أما بعد فقد ألفت الكتاب الكبير المسمى بمعجم البلدان ... وأتممت هذا الكتاب فجاء مطولاً ، وفي حمله مثقلاً ، فاستخرت الله سبحانه وتعالى ، واقتبست من مشكاته ما اتفق من أسماء البقاع لفظاً وخطاً ، ووافق شكلاً ونقطاً. وزودت ما احتاج إلى الزيادة ، وتركت ما تكرر من اللفظ والمعنى ولم يحتج إلى الإعادة . ووضعت في كتابي هذا (أي المراصد) ما يكفي به من طالعه واقتفى

أثره " . وواضح من هذه المقدمة أن المختصر (أي مؤلف المراصد) هو ياقوت الحموي دون غيره ، مع الأخذ بنظر الاعتبار أن هذه المقدمة قد تنطبق على كتاب .

ولكن منشأ الشك في نسبة الكتاب إلى الحموي هو أن الحموي نفسه كان قد قرر عدم اختصار معجمه بعد إتمامه بشكل بات . إذ جاء في مقدمة المعجم " التمس مني الطلاب اختصار هذا الكتاب مراراً فأبيت ، .... فما انقدت إليهم ولا ارعويت " وحظر على النسّاخ والدارسين اختصاره فقال " ولي علي ناقل هذا الكتاب والمستفيد منه ، أن لا يضيّع نصبي ونصب نفسي له وتعبي بتبديد ما جمعت وتشتيت ما لفقت وتفريق ملّم محاسنه باختصاره". ثم يوكل أمر من يخالف وصيته هذا إلى الله سبحانه وتعالى " إن أجبتني فقد يررتني جعلك الله من الأبرار ، وإن خالفتني فقد عققتني والله حسيبك في عقبى الدار " وهو يعتقد جازماً أن الاختصار يقلل من أهمية الكتاب إذ يجعله كالجسم المشلول ... الذي بترت أعضاؤه " إن المختصر للكتاب كمن أقدم على خلق سوي فقطع أطرافه وتركه أشل اليدين ، أبتر الرجلين ، أعمى العينين ، أصم الأذنين [7].

ومن جهه أخرى فإننا لا نجد في لائحة(ابن خلكان) التي ذكر فيها أسماء مصنفات ياقوت الحموي وكتبه ، التي أوقفها المؤلف نفسه على أحد مساجد بغداد والتي حملها (عزالدين بن الأثير) إلى هناك ، ما يشير إلى وجود مختصر لكتاب معجم البلدان غير كتاب (المشترك وضعاً والمفترق صعقاً) [8].

ولعل هذه الشواهد هي التي جعلت الباحثين يستبعدون اختصار ياقوت لكتاب المعجم. ولكن وجود الكتاب الأخير (المشترك) والذي ألفه ياقوت بعد المعجم (وهو اختصار للمعجم أيضاً) قد يتخذ دليلاً على أن ياقوت لم يلتزم بالخطر الذي فرضه على نفسه وعلى الأخرين في اختصار الكتاب أو اقتضابه ، إذ أنه استخرج المشترك من المعجم سنة 623 هـ / 1226 م . فجاء مختصراً جداً [9].

جاء في مقدمة المشترك " هذه طرفة طريفة وملحة مليحة تشوق إليها النفوس والطباع ، ويشترك في استحسانها أهل الإجماع والنزاع . انتحلتها من كتابي الكبير المسمى بمعجم البلدان ، فيما اتفق من أسماء البقاع لفظاً واوفق شكاً ونقضاً ، وأفترق مكاناً ومحلاً ...

جئت به مختصراً على الأسماء ، وما لا بد منه لحصر الفائدة بالإيماء ، ليخفف على الحامل نقله ، ويّيسّر على الناقل نقله، وسميته المشترك وضعاً والمفترق صعقاً"[10].

ومن هذه المقدمة تبدو قناعة المؤلف الحموي بفائدة الاختصار لكتاب المعجم . ولكن إذا تابعنا قراءة الأسطر الأخيرة من مقدمة كتاب (المراصد) تتولد لدينا قناعة تامة بأن الكتاب ليس لياقوت الحموي ، إذ أن الكاتب للمقدمة انتقد منهجية ياقوت في تأليف المعجم وتضمينه الكثير من المعلومات الزائدة أو التي ليست لها صلة مباشرة بموضوع الكتاب ، مثل اشتقاق الأسماء وطوالع البلدان وأسماء المنسوبين إلى الأماكن فقال " ذكر ذلك كله ووضعه في كتابه مما أطال به الكتاب حتى جاء في مجلدات كثيرة أتعبت الناظر وعسر لذلك تحصيله على الطالب .

وقد وضعت في كتابي هذا ما يكتفي به من طالعه واقتفى أثره ، بحيث أنه يستخرج ما في الممالك والمدن والقرى ، وغير ذلك عار عن الاختصار والأطناب ، وأودعته المقصود على نهج الصواب ، معتمداً في ذلك على الكتاب المذكور(المعجم) . فقيدت ما قيده ، وأهملت ما أهمله لعدم تمكني في الوقت من تحصليه . وربما زودته بياناً في بعض المواضع ، وأصلحت ما تنبهت عليه فيه من خلل وجدته في ذكره لبعض الأماكن ، أما لأنه نقله من غيره على ذلك الوجه ، وهو خطأ ، أو ظنه كذلك ، وقد عرفته أنا وحققته وسألت عنه أهل المعرفة من سكانه ومجاوريه والمسافرين إلى جهته . وقد يكون مما رأيته في سفري واجتزت به وخاصة في أعمال بغداد فإنه كثير الخطأ فيها "[11].

ومن هذه الأسطر يبدو أن المؤلف هو غير ياقوت الحموي ومن المرجح أن يكون عراقياً على اطلاع بأحوال بغداد وتوابعها كثير الأسفار . وقد رأى صاحب هذه المقدمة أن يجد تبريراً لمخالفته وصية الحموي فقال " لم أقبل منه شرطاً ولا التزمت حظره الذي حظره في اختصاره وتغييره ، لإغن ذلك شرط لا يلزم ومظنه الفائدة تعدّ . فجاء بحيث يتمكن الناظر من إطلاعه ولا يشق كتابته رغبة في نشر العلم ، ومثابرة على تسهيل الفائدة وسميته بمراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع "[12] .

هذه الملاحظات فطن إليها الباحث المصري على محمد البجاوي أيضاً ، والذي يبدو أنه لم يطلع على طبعة طهران من الكتاب ، فقال عما ورد في مخطوطة القاهرة التي اعتمدها في تحقيق

الكتاب " هذا كلام لا يتفق أوله مع آخره فأوله يدل على أن مؤلف الكتاب (المعجم) ومختصره واحد هو ياقوت الحموي ، وآخره يتفق مع مقدمة المطبوعة في ليدن كل الاتفاق ، ويدل على أن مختصر الكتاب غير مؤلفه "[13] .

ويلقى كاتب جلبي بعض الضواء على هذا الأشكال في حديثة عن معجم البلدان وينقل ما ذكره الصيمري [14] " قال في مراصد الاطلاع وهو مختصر المعجم : ألفت الكتاب الكبير المسمى بمعجم البلدان في معرفة المدن والقرى والخراب والعمار والسهل والوعر من كل مكان . وانتخبته من كتب التواريخ والخطط والعجائب ، وغير ذلك ، فجاء مطولاً واقتبست منه ما اتفق من أسماء البقاع لفظاً وخطاً. وزودت ما احتاج إلى الزيادة . ثم رأيت في مجموعة شيئاً منقولاً منه(المراصد) على أنه تأليف ابن عبدالحق الحنبلي " [15] وهو نص يفيد أن صاحب الاضافات والتصويبات هو أبن عبدالحق دون غيره .

وكل هذه الأدلة تشير إلى أن الكتاب ليس من عمل شخص واحد . وأن ما ورد في الأسطر الأولى من مقدمة كتاب المراصد ، يمكّننا من القول أن الذي شرع باختصار المعجم هو مؤلفه ياقوت الحموي نفسه ، وأنه أقتنع في أخريات أيامه بضرورة الاختصار ، وشرع في ذلك فعلاً بعد أن أتم كتابه (المشترك) أي قبل وفاته بثلاث سنوات، ولكنه لم يتمكن من اكماله (المراصد) فأتمه بعد ذلك بقرن صفي الدين الذي حصل على ما بدأ به الحموي ، وصفي الدين تنطبق عليه ما ورد في في نهاية المقدمة من أوصاف ، فهو بغدادي كثير الأسفار إلى الشام والحجاز ومصر مطلع على أحوال هذه البلاد . فضمن الكتاب ما شاهده أو سمعه ولم يشأ أن ينسب الكتاب لنفسه تعففا وحفاظاً على الأمانة العلمية.

وإذا كانت الكثير من البحوث والدراسات قد تعرضت لشخصية ياقوت الحموي [16] . فإن الواجب يقضي هنا تقديم نبذه عن حياة صفي الدين الذي لم تكتب سيرته بشكل شمولي بعد .

ولد عبدالمؤمن بن عبدالحق بن عبدالله بن علي بن مسعود البغدادي الحلي ، الملقب بصفي الدين والمعروف بأبن عبدالحق وبأبن الشمائل ببغداد سنة 1260/658، أي بعد سنتين من دخول المغول بغداد . أخذ علومه المبكرة عن عائلته التي عرف أفرادها بالعلم ، فأبوه كمال الدين عبدالحق كان خطيباً بجامع فخر الدولة عبدالمطلب ، وكذلك كان جده بن الشمائل قبله . ثم جذبته دراسة الحديث

والفقه فسمع من علماء بغداد ولازم بعضهم . ثم أقبل على الاشتغال في الأمور الدنيوية لتوفير لقمة العيش معتمداً في ذلك خطه الجميل وسرعته الفائقة في الكتابة والنسخ والمهارة في علم الرياضيات ، الأمر الذي أهله للعمل في ديوان حكومة بغداد المغولية مدة قصيرة.

ولكن نزاهته وعفته ، وما عرفت به الإدارة آنذاك من فساد وانحلال ، جعله يقرر ترك العمل الرسمي ، والتخلي عن الأعمال الدنيوية والانصراف إلى العلم ، فلازمه مطالعة وكتابة وتصنيفاً وتدريساً وأشغالاً واشتغالاً حتى وفاته . وبعد أن درس في مدارس بغداد الشهيرة آنذاك وتتلمذ علي يد علمائها ، زار كلاً من الشام والحجاز ومصر . وكانت هذه الأقطار خارجة عن حكم المغول ، فهاجر إليها الكثير من علماء العراق ، فدرس هناك ودرّس وناظر واجتمع بالعلماء والأساتذة وتعرف عليهم. وقد وسعت هذه الزيارات معارفه وعمقت تفكيره ، وأطلعته على التيارات الفكرية السائدة هناك . وقد ذكرت المصادر أسماء عدد من شيوخه الذين قرأ عليهم في بغداد والشام والحجاز [17].

إذ خرّج لنفسه معجماً لشيوخه سماه (منتهى أهل الرسوخ في ذكر من أروي عنهم من الشيوخ).

وبعد عودته من رحلته درّس في المدرسة البشيرية ثم بالمدرسة المجاهدية وكانتا من كبريات مدارس بغداد آنذاك . وقيل أنه ترشح للتدريس بالمدرسة المستنصرية ، لكنه لم يوافق على ذلك لعدم رغبته في الوظيفة أو التدريس في مدرسة صارت شبه رسمية في ذلك العهد [18] . ولم يكن التدريس مكان عمله الوحيد ، بل أنه أفتى وناظر وحدث كثيراً ، وترك عدداً كبيراً من الطلاب في العراق والشام والحجاز ومصر أخذوا عنه العلوم النقلية والعقلية وقد سجلت المصادر التي وردت الإشارة إليها في هذا البحث أسماء عدد من طلابه .

صنف في علوم كثيرة، في الفقه والأصلين والحساب والجبر والمقابلة والفرائض والوصايا والمواريث والحديث والطب والفلك والمساحة والهندسة ، وأختصر كتباً في التاريخ والجغرافية ، فضلاً عن تميزه بالنحو والأدب ونظم الشعر.

وكان على معرفة تامة بدلائل القبلة وهو موضوع جديد في زمانه ، وكذلك صنعة البنا والهندسة ، ومن الكتب التي ورد ذكرها في المصادر:

" تحرير المقرر في تقرير المحرر" في ستة مجلدات ، و " العدة في شرح العمدة " مجلدان ، و" إدراك الغاية في اختصار الهداية " وسماه صفي الدي(التمهيد) ثم شرحه في أربعة مجلدات وسماه (تجريد العناية في شرح اختصار الهداية) و" شرح المسائل الحسابية من الرعاية الكبرى " وسماه (الايضاح والبيان لما في الرعاية الكبرى للشيخ نجم الدين أبن حمدان من المسائل الخيرية) ، وكتاب " تحقيق الأمل في علم الأصول والجدل " ثم اختصره في كتاب آخر ، "وتسهيل الوصول في علم الأصول" و "تخليص المنقح من الخطل في علم الجدل " و " قواعد الأصول ومعاقد الفصول " و " اللامع المغيث في علم المواريث " و " أسرار المواريث" و " الزهر الناضر في روضة الناظر" و " المطالب العوال لتقرير منهج الاستقامة والاعتدال " و "مختصر تاريخ الطبري " في أربع مجلدات. واختصر " الرد على بن المطهر " الذي ألفه تقي الدين بن تيمية في مجلدين ، وتضيف بعض المصادر إلى ذلك أنه أختصر " معجم البلدان" لياقوت الحموي ، وخرج معجماً لشيوخه وكتب قبل موته في علوم كثيرة .[19]

وصفه بعض من ترجموا له بأنه (عالم بغداد) و (شيخ العراق على الإطلاق) . وقال عنه تلميذه بن رجب البغدادي " كان إماماً فاضلاً ذا مروءة وأخلاق حسنة ، وحسن هيئة وشكل عظيم الحرمة ، شريف النفس منفرداً في بيته لا يخشى الأكابر ولا يخالطهم ولا يزاحمهم في المناصب ، بل كان الأكابر يترددون إليه . وكان ذا ذهن حاد وذكاء وفطنه وعنده خميرة جيدة من أول عمره في العلم " ومع كل هذه الوصاف فإن تلميذه بن رجب يشك في قدراته في موضع آخر فيقول " له أوهام كثيرة في تصانيفه حتى في الفرائض من حيث توجيهه المسائل وتعليلها رحمه الله وسامحه " .وقال عنه تلميذه الآخر سعيد بن عبدالله الذهلي " كان فقيهاً بارعاً عالماً زاهداً متواضعاً خيراً حسن الخلق، ومحاسن كثيرة ، طارحاً للتكلف على طريقة السلف ، محباً للخمول طاهر اللسان " ووردت الأوصاف نفسها عند كل من بن رافع السلامي ، وبن حجر العسقلاني واضافت المصادر الأخرى بأنه كان علامة بالفرائض والجبر والمقابلة والحساب مع الفقه والأدب والنحو والنظم الجيد[20].

ويبدو أن موقفه من سلطات بغداد المغولية كان سلبياً، بدليل تركه العمل في ديوان بغداد ، ورفضه قبول التدريس بالمدرسة المستنصرية ، وهي مدرسة شبه رسمية ، فانزوى في بيته متقطعاً عن أبناء الدنيا . وهذا السلوك جعل السلطات الحاكمة تهابه وتحترمه ، فلما أثيرت (مسألة الزيارة وشد الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين سنة 726 هـ / 1325 م وحدثت فتنة كبيرة في الشام ومصر بسبب جواب الشيخ تقي الدين بن تيمية على هذه المسألة ، فازداد التشنيع على أبن تيمية ومن الأفتاء وحبس في قلعة دمشق . وجدت هذه المشكلة صداها في بغداد التي أنتصر علماؤها في أجوبتهم لجواب أبن تيمية . وكان في مقدمتهم أبن عبدالحق الذي سجل جوابه بموافقة أبن تيمية ، وأوذوا كثيراً ، إلا صفي الدين الذي لم يتعرض له بسوء هيبة له واحتراماً (21) . وكان أبن عبدالحق على اتصال دائم بابن تيمية والاستفسار منه عن بعض المسائل التي ترد في كتبه . مات أبن عبدالحق سنة 739هـ / 1338م عن أحدى وثمانين سنة وقد حزن عليه أهل بغداد حزناً كبيراً ودفن بمقبرة الإمام أحمد في باب حرب . وقد ضاعت معظم كتبه ومصنافاته في الفوضى والأحداث التي عرفها العراق في الحقب التالية ، ولم يصلنا منها سوى أبيات من شعره وردت على ألسنة طلابه وكتاب في الأصول (طبع مختصرة) (22) وكتاب في الجغرافية (منسوب له) كان موضوع البحث.

إن ضياع هذا العدد من المؤلفات ، أدى إلى خسارة كبيرة في المرجعيات والعلوم التي كانت متداولة في ذلك العصر ، الذي وصف بأنه " عصر مظلم " .

ومن المؤكد أن العثور عليها سيساعد في الكشف عن الكثير من الجوانب المظلمة فيه ويسد فراغاً كبيراً في المكتبة العربية .

الهوامش والمصادر

1- Renaud ,Notice sur les Dictionnaries P.92 أقتباساً عن كراتشكوفسكي.تاريخ الأدب الجغرافي عند العرب ،ترجمة صلاح الدين عثمان (جامعة الدول العربية 1961) 343/1.

2- مصطفي بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة،وبكاتب حلبي،كشف الظنون علي اسامي الكتب والفنون (طهران 1976) 1652،1773/2

3- Istanbul kutubhanelerinde Osmanlilar Devrine Aid Turkce-Arabca-Farsca Yazma Ve Basamo Cografya Eserler Biblloyas (Istanbull 1923)

4-عباس الغراوي،التعريف بالمؤرخين(بغداد 1975) ص.175

5- تاريخ آداب اللغة العربية (القاهرة-بلا) 89./3

6- صفي الدين بن عبد المؤمن بن عبد الحق ،مراصد الاطلاع علي اسماء الأمكنة والبقاع ،تحقيق محمد علي البجاوي (القاهرة 1954) المقدمة.

7- مقدمة كتاب معجم البلدان (طبعة ويستنفيلد).(1866) F.wustenfeld (Leipzig

8- أحمد بن محمد بن خلكان،وفيات الاعيان ،تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة 1949) 180/5-189.

9-ر.م.ن.بئ إلهي،ياقوت الحموي البغدادي ،ترجمة يوسف داوؤد عبد القادر محلة المورد (بغداد) م 7 العدد الاول 1978 ص.22

10-ياقوت الحموي ،المشترك وضعاً والمفترق صقعاً (ويستنفيلد1945 Guttingen)

11- مراصد الاطلاع القاهرة 1954)المقدمة.

12-مراصد الاطلاع القاهرة 1954)المقدمة.

13-نفسه.

14- كتب عن السمعاني صاحب الأنساب وعن ابي عبيد البكري وعن ابن عساكر الدمشقي.

15- كشف الظنون 1734/2.

16- علي سبيل المثال أنظر بئ إلهي ،ياقوت الحموي،المصدر السابق ،كراتشكوفسكي تاريخ الادب الجغرافي ،بدري محمد فهد ،ياقوت الحموي البغدادي ،في كتاب علماء العراق بين القرنين السابع والحادي عشر الهجريين (بغداد 1998).

17- تعرضت لسيرته المصادر الآتية := عبد الرحمن بن رجب البغدادي ،كتاب الذيل علي طبقات الحنابلة (القاهرة 1953) 428/2-430،كتاب ذيل تذكره الحفاظ للذهبي ، الذيل الأول لمحمد بن علي الحسيني الدمشقي (بيروت-بلا) ص12 ، محمد بن رافع السلامي ،تاريخ علماء بغداد المسمي المنتخب المختار (بغداد 1938) ص123 بن حجر العسقلاني ،الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة (القاهرة 1966) 632/3 ابن العماد الحنبلي ،شذرات الذهب في أخبار من ذهب (بيروت-بلا) 121/6.

18- ابن رجب ، كتاب الذيل 340/2 ،بن رافع السلامي ،المنتخب المختار ص124 ،ذيل تذكرة الحفاظ للذهبي ص21.

19- استخرجت هذه القائمة من المصادر المذكورة في الهامش رقم (17) ومن جميل الشطي مختصر طبقات الحنابلة (دمشق 1339) ص60 ،إسماعيل باشا البغدادي هدية العارفين ، اسماء المؤلفين واثار المصنفين (طهران 1967) ص631 لمؤلف نفسه ، إيضاح المكنون في الذيل علي كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون (طهران 1976) ص463.

20- ابن رجب ،كتاب الذيل 430/2 ، ابن رافع السلامي المنتخب المختار ص 125 ، أحمد بن علي الشوكاني ، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (القاهرة 1346) 404/1، بن حجر العسقلاني الدرر الكامنة 32./3

21-أبو المعاي الحسيني السلامي الشافعي ، غاية الأماني في الرد علي النبهاني (د.ت) 194/2-199 وفيه نص جواب صفي الدين ، بن رجب ،كتاب الذيل 430./2

22-(قواعد الأصول ومعاقد الفصول) مطبوع في كتاب (مجموع فنون أصولية لمشاهير علماء المذاهب الأربعة) ثم أختصر في كتاب وطبع باسم(الاصول ومعاقد الفصول) ناجي معروف ، علماء المستنصرية (بغداد 1965) ص188.